



خالد صاغية

## مونديال تحت الدوش

عبثاً يحاول بعض اللبنانيين التفتيش عن انقسامات طائفية لمشجعي المونديال. كأن يقال مثلاً إن الشيعة مع البرازيل، والسنة مع ألمانيا أو العكس... لكن الواقع هو أن الحزب العابر للطوائف، والمتمتع بتمثيل شعبي واسع، قد وُلد أخيراً. إنه حزب مشجعي البرازيل وحزب مشجعي ألمانيا وحزب مشجعي الأرجنتين...

المواكب السيّارة التي تضم عشرات الشبان، والتي تنزل إلى الشوارع في أنحاء مختلفة من البلاد، لترتفع بأعلام نجوم المونديال، إنما تحمل بشائر سارة. وكذلك تفعل أعلام الفرق المتنافسة حين تعلو شرفات المنازل في مناطق تعرف «الصفاء» الطائفي. وكل هذا يشكّل مثلاً مضافاً لكل الذين يعتقدون أن الشعب اللبناني لا يمكن أن تحرّكه إلا غرائزه الطائفية، ولكل الذين كلما لاحت ظاهرة اجتماعية، عمدوا إلى البحث عن تفسير طائفي لها، وإعطاء الحصرية لهذا التفسير. وكذلك لكل الحركات التي حاولت التغيير في لبنان، ولم تتوان عن ردّ فشلها إلى عامل وحيد هو الطائفية.

تصوّروا! يمكن اللبنانيين أن يتحمّسوا من دون طائفية، وأن ينزلوا إلى الشوارع من دون طائفية، وأن يتابعوا باهتمام على مدى شهر كامل حدثاً لا يمت إلى المحاصصة الطائفية بصلة. ليست مسألة جينات إذاً. ربّما كانت مسألة شغف. وللطائفية شغفها دون شك، لكن شغف المونديال لا علاقة له بانتماءات ضيقة. إنه الانتماء إلى فضاء رحب يلف الكرة الأرضية كلها، والانتماء إلى حيز يتجاوز حدود الوطن وبلاد الشعارات الوطنية. لعل ضعف منتخب لبنان الوطني وضعف شعور اللبنانيين الوطني عموماً، هو ما يتيح هذا الترف. ترف تحويل الأعلام والأناشيد الوطنية إلى مجرد فولكلور.

المونديال لم ينجح الطائفية إلى الصفوف الخلفية وحسب، لقد فعل ذلك مع السياسة برمّتها أيضاً. أبطال الشوارع اليوم ليسوا ميشال عون وسعد الحريري (أو نادر أو أحمد أو بهية) وبنية برّي... شاغلو القلوب هم ميسي وكاكا وكلوze... حتى الشهداء تراجع ذكرهم، ويات للمونديال شهداؤه الأحياء كبالاك ورونالدينو...

بعد كل ما مرّ على هذه البلاد خلال الأعوام الأربعة الماضية، للمونديال وأعلامه هذا العام نكهة مختلفة. فيها نحن نتابع المباريات كمن يأخذ حماماً ساخناً كي يغسل تعب و عاره.

أشخاص

# مسعود ظاهر

المادية التاريخية وإمبراطورية «الشمس الشارقة»

كامل جابر

لم يزد وسام «الشمس الشارقة» إلا عزماً على المزيد من العطاء والتنقيب في ذاكرة الشعوب. مسعود ظاهر صار أخيراً أول عربي ينال هذا الوسام الذهبي من إمبراطور اليابان أكيهيتو، من بين 62 وساماً مُنحت خارج اليابان منذ تأسيس الإمبراطورية، في المجالات الاقتصادية والتنموية. المؤرخ اللبناني كتب عن نهضة اليابان واستراتيجيتها وتاريخها ما لم يكتبه أي عربي.

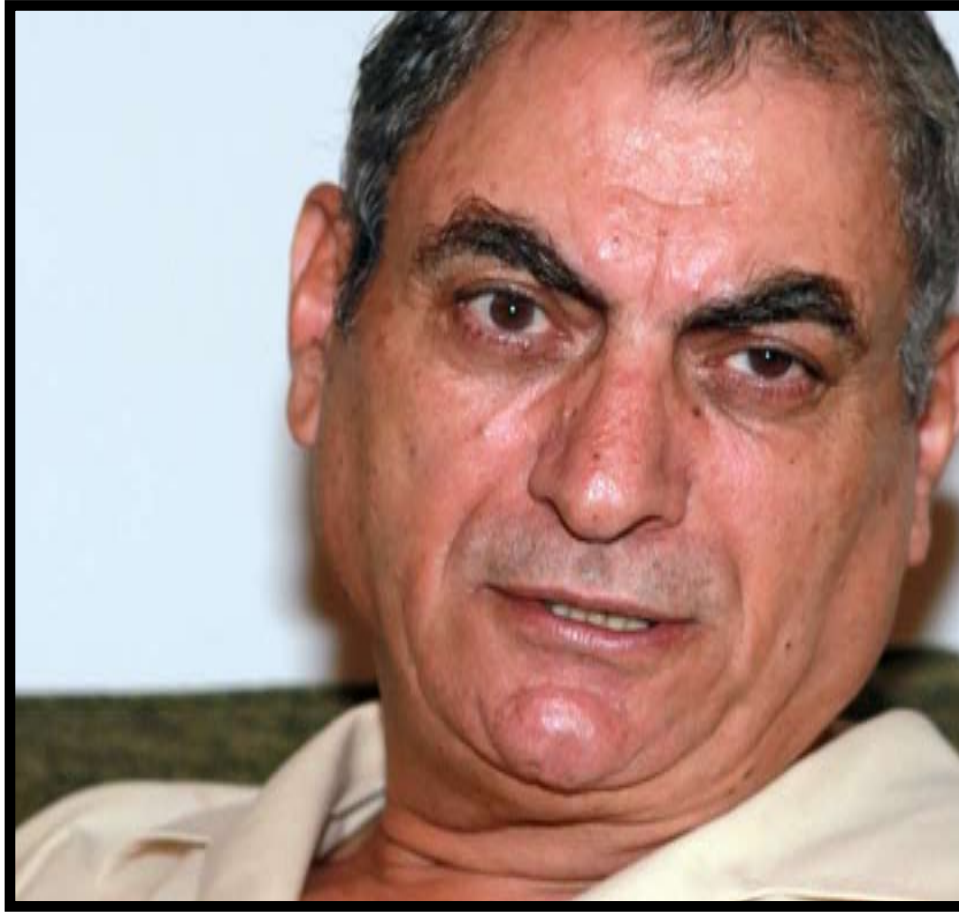
هذا المؤرخ الذي لا يهدأ أو يكل، يتقن الفرنسية والإنكليزية ويلمّ بالروسية واليابانية. لم يترك جامعة في العالم إلا زارها محاضراً أو مشاركاً في مؤتمر. يكرّس وقته للبحث والتأليف، ساعات طويلة كل اليوم منذورة للكتابة والبحث والتدقيق في وثائقه التي لا تعد ولا تحصى. «أكتب من خلال ما أجمعه من وثائق»، يخبرنا صاحب «الجدور التاريخية للمسألة الطائفية اللبنانية». جدران بيته في وطى المصيطبة (بيروت) ليست سوى مكتبات، وعلى رفوفها أكثر من 11 ألف كتاب بلغات متعددة، هذا إذا استثنينا الوثائق والدراسات. فقد كرّس ظاهر سنوات طويلة للاطلاع على أرشيف الوثائق الفرنسية والروسية والإنكليزية والنمساوية والأميركية... حتى إنه خصص منحة كان قد حازها، للحصول على سبعة عشر مجلداً من الأرشيف الأميركي عن لبنان ما بين 1835 و1960.

في الشيخ طابا (عكار - شمال لبنان)، ولد مسعود ظاهر عام 1945. تلمّس منذ صغره الفقر والعوز اللذين تعيشهما المنطقة، وعاش مع الحرمان المستشري على مختلف الأصعدة. تعلم في مدرسة القرية دروسه الابتدائية، ثم تابع في مدرسة منيارة القريبة. عام 1960، التحق بدار المعلمين في زحلة، وسكن عاصمة البقاع ثلاث سنوات. الحراك الاجتماعي والثقافي هناك بين المكتبات الضخمة والندوات مثل حافظ مسعود الشاب في ذلك الحين، فقرر أن يتعلم «حتى آخر رمق»، يقول. «لم أكن أتصوّر أنني يمكن أن أقف عند مستوى ما، أو أن أرى أن ما تعلمته بات كافياً».

في جامعة «السوريون»، نال دكتوراه دولة في التاريخ الاجتماعي عام 1973، وتعرّف إلى أحد كبار المؤرخين وعلماء الاجتماع الفرنسيين جاك توبي. لقاء شجّعه على الانحياز نحو التاريخ الاجتماعي. لكن النزعة اليسارية كانت قد تملكته صاحب «تاريخ لبنان الاجتماعي 1914 - 1926» (كتابه الأول الصادر عام 1974 عن «دار الفارابي») منذ بداية دراسته الجامعية عام 1964. كانت علاقته وطيدة بمؤرخين مثل يوسف إبراهيم يزبك، وإدمون رباط، وقسطنطين زريق، إضافة إلى عبد العزيز الدوري، رئيس اللجنة التي منحت «جائزة عبد الحميد شومان للعلماء العرب الشبان» في الأردن عام 1983.

عن تلك الخيارات يقول: «لم أمتهن العمل السياسي بالمعنى الحرفي. كنت حزبياً لسنوات طويلة. انتسبت إلى «الحزب الشيوعي اللبناني» عام 1967، وعشنا مرحلة صعود اليسار. يفتخر المرء بأنه كان ينتمي إلى التيارات العلمية العقلانية العلمانية حينها. حتى خلال إقامتي في فرنسا، بقيت أشارك في اجتماعات أسبوعية في مركز الحزب الشيوعي الفرنسي».

يرى ظاهر أن المفكرين الذين أحرزوا نقلة نوعية في مجال التاريخ هم ماركسيون أساساً: «من دون البعد المادي والاقتصادي في التاريخ، يصبح التاريخ مجرد أمانيات». «ما زال الفكر الماركسي في معالجة التاريخ بالمعنى العلمي هو الأساس، إذ



## 5 تواريخ

1945

الولادة في الشيخ طابا (عكار، شمال لبنان)

1967

انتسب إلى الحزب «الشيوعي اللبناني»

1973

نال دكتوراه دولة في التاريخ الاجتماعي من «جامعة السوربون»، ويدرس في «الجامعة اللبنانية» منذ ذاك الحين

1999

صدر «النهضة العربية والنهضة اليابانية: تشابه المقدمات واختلاف النتائج»، ضمن سلسلة عالم المعرفة (الكويت)

2010

منحه إمبراطور اليابان الوسام الذهبي لنشر الثقافة اليابانية من مرتبة «الشمس الشارقة»

حتى 1943». حين جرب طباعتها ثانية ضاعت المخطوطة ولم تنشر حتى الآن. وبعد الاحتياح الإسرائيلي للبنان عام 1982 كادت رصاصات طائشة تقتله، فإذا بها تشطر أنفه إلى نصفين. «صمدت في الاحتياح هنا في وطى المصيطبة، أنا وحبیب صادق ومحمد دكروب... لم أترك البلد. ما زلت أقول هذا البلد جيد، والشعب طيب، وأريد أن أرى الجانب الإيجابي فيه. أنا شخصياً مقتنع بأن صمود الشعب اللبناني أرقى تجربة في التاريخ العربي الحديث والمعاصر». ورغم العروض التي تلقاها للتدريس في جامعات عربية ودولية، بقي مسعود ظاهر يرفض فكرة السفر. «سأبقى في البلد مع أصدقائي، لأنني أشعر بأن هجرة المثقف لا معنى لها».

في عام 1989، دعاه رفيقه الشيوعي المؤرخ السوري عبد الله حنا إلى اليابان محاضراً زائراً في معهد الاقتصاديات المتطورة في جامعة طوكيو. هناك أضى عاماً كاملاً، وكانت تلك الزيارة مقدمة لموسوعة وقّعتها عن اليابان. هكذا أنجز «النهضة العربية والنهضة اليابانية: تشابه المقدمات واختلاف النتائج» التي نشرت ضمن سلسلة عالم المعرفة في الكويت عام 1999، و«النهضة اليابانية المعاصرة: الدروس المستفادة عربياً» (مركز دراسات الوحدة العربية - 2004). بعد اليابان، بدأ سير غور التجربة العمانية، وخصوصاً بعدما نشر كتابه «الاستمرارية والتغيير في تجربة التحديث العمانية 1970 - 2005» (دار الفارابي - 2008).

بعد أكثر من عشرين كتاباً مختلفاً في التاريخ، صدرت بالعربية والإنكليزية، خلص مسعود ظاهر إلى أن «دور المؤرخ هو أن يرى كيف يتطور مجتمعه، لأن الإنسان هو من يصنع تاريخه».

وماذا عن المؤرخ؟ «إنه لا يصنع التاريخ بل يكتبه. وهذا يحتاج إلى موضوعية كبيرة، وخصوصاً أن مسيرة التاريخ علمتنا أن الثابت يمكن أن يتحول، والمتحول يمكن أن يصبح ثابتاً».

نادراً ما نجد كتاب تاريخ ذا قيمة علمية إلا يكون صاحبه من خلفية ماركسية».

لم توفر شظايا الحرب الأهلية اللبنانية مسعود ظاهر اليساري، الذي كان يسكن في عين الرمانة. نهب بيته كلياً ومكتبته ضمناً... مكتبة كانت تحتوي على ما جمعه طوال عقد كامل من وثائق ومراجع. هذا الأمر أحر حصوله على الدكتوراه حتى مطلع الثمانينيات. لاحقاً بسبب حريق المطبعة التي تعرّضت للقصف، احترقت مخطوطته «الجمهورية اللبنانية في عهد الانتداب من 1926

